لعبة الاقواس

بقلم: سيد سعيد

آه .. ليس ثمة قمر الليلة ولكن كل شيء يبدو واضحا ومضيئا .. اليس كذلك يا عزيزي ؟ . لو كان في الامكان ان تظل تسير هكذا متلاصقين كشقي دوله .. اني لتمنيت ان اظل ذلك مدى العمر .. ومع ذلك فالحياة قصيرة للاسف .. أقصر مما نريد دائما .. لا يهم .. تكفيني لحظة مضيئة من حياتي .. لا يهم ابدا ان تموت اذا كنا نستطيع ان نحصل على بضع لحظات من السعادة ..

لفت ذراعها حول خصره كأنها تحتضن حلما طالت تنتظره طويلا واستطردت بهدوء سعيدة ان تموت ومع ذلك فلن تموت الربيع ابدا .. وفي ليال كثيرة كهذه يهدأ فيها البحر كأنه في اجازة .. وفي استطاعة السماء ان تكون صافية الى هذا الحد .. ما أروع الحياة هكذا .. لماذا لا تنظر الى هه ؟ .

أشعر بالقمر يسطع داخل قلبي هذه الليلة .. فيم تفكر يا حبي ..

قال في هدوء يجذب كلماته من قاع قلبه مباشرة .

ـ اعرف انه لن يأتي الصيف ابدا ..

دوت كلماته في رأسها الصغير فتصدعت تموجات دهشة فرق حبيها ودفعت شيء من الضيق الى قلبها كما لو كانت قد سقطت من الحجيم سحابة لطخت صفو سماء راكدة ..

ـ ماذا تقول يا عزيزي ؟

ـ انا واثق انه يخدعه .

ـ يخدعه ؟! .. عمن تتحدث ..

ـ القوس ..

ازدادت تموجات الدهشة فشملت وجهها كله وسقط الضيق في قدميها فتوقفت عن السير ..

ـ قوس ؟ .. انك تقول اشياء غامضة .

ابتسم في خجل كرجل ضبطوه يحدث نفسه ... قال وهو يدفعها للاستمرار في السير ..

ـ لا شيء .. لا شيء يا عزيزتي ـ لا تهتمي .. عن ماذا كنت تتحدثين ؟ من السعادة ..

استمري ..

شدت قبضة يدها حول خصره . قالت بحنان العاشقة وقد عاودها هدوءها ..

ـ ماذا يقلقك يا حبيبي .. كنت اتحدث عن السعادة بالطبع .. سعادتنا انا وانت .. سيكون لدينا عش هادىء واطفال كثيرون .. هل تحب أن أنجب

لك اطفـــالا كثيرين .. اتمنى اطفـــالا يشبهونك .. كم ولدا تريد وكم بنتا .. هـــه ..

عبوته ما زالت تتابع مقدمة جدائه .. لا شيء يثير فيـــه الخيال .. لا ضياء الليل ولا شـــاعرية الشاطىء في ليلة مضيئة بدون قمر ولا الصـــوت الدافىء الذي ينساب بالأحلام الى جواره .. ثم فجأة دوت الكلمة ..

وهم ..

دق العصب في قلبها مع الدوي .. وعادت القطيعة تضغط جبينهـــا . بينما كانت تعبر السماء بالفعل سحابة داكنة ..

ـ وهم .. ! أليس هذا كثيرا ؟ .. انت غريب هذه الليلة ..

تلفت اليها في حزن وارتـــاح كأنه وطأ حيوانا رقيقا دون قصد ..

ـ آسف يا عزيزتي .. هـــل كنت لا تزالين تتحدثين عن السعادة .. لم اكن اقصد ذلك ..

كنت افكر في القوس ..

عالت وشعور الدهشة ما زال يشد جانبيها ..

ـ قوس .. أ ما هذا .. ؟ اي قوس تعني .. ؟

ـ الأستاذ مرزوق ..

ـ من مرزوق هذا .. ؟

ـ رئيسي في المكتب ..

ـ هل اسمه مرزوق القوس ؟ ..

ـ كلا .. ولكن اذا نظرت اليه من الأمام سنجد بينه وبين القوس .. هل تعرفـــين القوس .. شيء منتفخ من الوسط .. نصف طولي تقريبا ..

ضحكت كأنه داعبها .. سألته وهي تلقي برأسها على كتفه ..

ـ وما شأنك به ؟

عاد يجذب كلماته من قلبه ..

ـ قال له احضر يوم الســـبت ..

ـ قال لمن ؟ ..

ـ رجل بســـيط .. انا واثق انه يحمل فوق رأسه كل كائنات الحياة .. انسان بلا عمل .. حضر منـــذ شهر وقابل القوس .. كان في عينيه مهانة وفي كلماته استرحام .. هز له القوس رأسه وقال ســـنا .. احضر بعد غد .. وقبل ان ينصرف الرجل ســـأله القوس .. هل تستطيع أن تشتري لي اقة لحم ؟ .. هكذا يا عزيزتي ..

بالطبع انا احب الأطفـــال كثيرا لماذا لا تتحدثين عنهم ؟ .. عن اطفالنا ..

قالت وقد استدارت الدهشـــة داخل عينيها .

ـ اطفالنا ؟ ..

ثم استدركت باسمة .. أوه .. سيأتون بلا شـــك .. ولكن ماذا يريد الرجل من قوسك هذا ؟ ..

ـ وظيفة .. يريد وظيفة .. عندما حضر له بعد يومين .. أخرج القوس ورقة ثم كتب اسم الرجل وسنه بعناية وقال له اطمئن .. ســـأكلم البـــه في الموضوع ... هل تـــؤدي الى خدمة فتحضر الولد من المدرســـة .. آسف يا عزيزتي .. فقد أفسدت انســـجام احلامك .. ولكن الأمر مؤلم لي أشد الألم .. لقـــد فكرت في أن أستدعي الرجل واشرح له اللعبـــة .. انا واثق

انه يخدعه .. فانا اعرف هؤلاء الناس جيدا .. اعرفهم اكثر من اى انسان آخر .. فقد حدث لنا نفس الشيء ذات يوم ..

قالت وهى تلهث خلف كلماته الحزينة .

ـ يبدو انك تخفى فى داخلك اشياء بغيضة .. لماذا لا تحدثنى عنها ؟ .. الستا تشقى قوله ؟ ..

ـ انت ترين دائما أن الحياة مضيئة ولهذا فانا استمر عبئيك حينما أكون معك ..

ـ ولكن اذا كانت ثمة اشياء تؤلمك فان هذا يشعرنى بالتعاسة ..

ـ الالم فى حد ذاته لا يعنى شيئا بقدر ما يضطرنى الى كراهية بعض الناس ..

ـ لكن بعض الناس جديرين بالكراهية .

يحمل كل شيء لا يحتمل اذا ظللنا نفكر فى الأسباب فلن يكون لدينا وقت لأن نعيش وأن نحب ..

ـ هذا صحيح ولكنه بغيض .

ـ ما هو البغيض ؟

ـ ان احد نفسى مضطرا لقتل احد الناس .

قالت فى جزع محقون بالشك

ـ هل تنوى ان تقتل احدا .

ـ اشعر احيانا برغبة فى قتل القوس بل كل الأقواس .

ـ لمـــاذا ؟ .

قال يحاول ان يروغ .

ـ ليس دائما تكون الحياة فى الليل واضحة بدون قمر ..

ـ لابد أن يكون هناك سبب ..

ـ دائما كل شيء له سبب . ولذلك لماذا تنظرين الى الأرض ؟ ..

ـ افكر فى القوس ..

ـ لمـــاذا ؟ ..

ـ كنت اقول انه لابد ان يكون هناك سبب يجعلك تكره بعض الناس هكذا .. انى اكره هـــذه اللحظة فانها تفصلك عنى .

ـ هل قلت لك ان اختا لى ماتت ؟

ـ كانت اختك الوحيدة ..

ـ قتلها رجل منتفخ البطن ... كتلة ضـــخمة من اللحم تشبه القوس .. ذهبت اليـــه ذات يوم وفوق ظهرى نصف جوال ارز وعنـــدما طرقت بابه نظر الى فى دهشـــة ثم مضى نصف قرش واغلق الباب فى وجهى .. نزلت احد درجات السلم . كانت خمسة وأربعون درجة ..

ـ متى حدث ذلك ؟ ..

ـ في كل لحظة .

ـ ايـــه .. ؟! ..

ـ أقصد انني أذكر ذلك في كل لحظة كنت في الحادية عشر تماما عندما خرجت بهـا عربة اســعاف قديمة لها جرس مخرق ... كان منظرهما مخيفا ..

المسرعة واختي .. كان وجه اختي وصدرها قد تحول الى ما يشبه ورق الكوريشة الأسود ..

هل تعرفين ماذا حدث هناك ..؟

ـ ورق الكوريشه الأسود ؟!! .

ـ قال القوس للرجل .. هل لديك رخصة سواقة .. حين لا تفقد أن الحصول على وظيفة سائق بالشركة بالمسألة السهلة .. لابد من وضع ترتيبات لذلك ثم همس في أذنه بضع كلمات لعناية ..

وفي اليوم التالي حضر الرجل حاملا ثلاث زجاجات كبيرة من الويسكي ..

كانت أمي تجري خلف العربة تعوي أما أبي فقد أخذ يمسح رأسه بالحائط ككلب أجرب . أما أنا فقد التف حولي بضع صبية راحوا ينظرون الي في وجوم ..

ـ هل كنت تبكي ..

ـ كلا .. كان ذلك صعبا علي .. ولكن بعد شهر ظللت أضرب رأسي بالحائط وأبكي حتى يناديني الأصدقاء ..

ـ ما أفظع ذلك .. هل قلت ان رجلا قتلها ؟ ..

ـ ماتت محترقة .. كان أبي هـو السبب .

ـ أبوك ؟! ..

ـ كان تجار مراكب يهمه حتى الموت الحصول على عمل ثابت .. كانت لعنة تصقها شيطان من أقارب أمي فوق ورقة قدمها أبي ذات يوم لرجل له رأس كبيرة وبطن منتفخة وعينـان حمراوان .. رجل له أهمية .. وأبي يريد الحصول على عمل ثابت والعمل موجود عند هـذا الرجل .. والمطلوب شيء من التصرف .. هكذا قال قريب أمي وهو يقـدم لأبي التوصية ..

قال الرجل لأبي .. يمكنك أن تمر علي بعد أسبوع .. قل لقريبك أن يحضر لنا نصف جوال أرز .. قال أبي لقريبنا صاحبك يريد نصف جوال أرز عمر قريبنا لأبي قائلا .. اذن تصرف .

حملت أنا نصف جوال الأرز وذهبت بها الى منزله وانتظرنا بعد ذلك أسبوعا

ـ هل حصل أبوك على عمل ؟ ..

ـ ذهب أبي بعد أسبوع وعاد يطلب مني أن أذهب بصفيحة سمن وبعد يومين كان أبي يشتري له الخضار ولوازم البيت ثم قمت أنا بهذه المهمة كنا جميعا كالكلاب تلهث خلف قطعة لحم في يد رجل يسير وهو يبتسم .. لم يطردنا ولم يقدمها لنا .. بل جعلنا نسير خلفه وعيوننا معلقة بقطعة اللحم على أمل أن يلقيها الينا يوما ..

قال أبي لأمي ذات يوم .

ـ انه يريد أحدا لتنظيف شقته .. هربت الخادمة التي عنده .. هل تستطيعين الذهاب ؟ .

ـ قالت أمي .. انى مريضة .. هل تذهبين يا عائشة .

نظرت عائشة الى أبى فاستدست نظراته الا ليلة ذهبت فى اليوم التالى ثم ظلت تذهب بعدها كل يوم . وفى ذات يوم همست عائشة فى أذن أمى بعض كلمات .. دنت أمى صدرها بعدها ثم همست بها فى أذن أبى .. جرع أبى فى البداية ثم قال ببساطة ..

ـ هل يعقل ذلك ؟ رجل كبير فى المقام مثله .. أنت واهمة يابنتى .. اذهبى كلها اسبوع بعدها يأتى الفرج .

ـ هل حاول الرجل شيئا ؟ .. لماذا صمتت ؟ .. هل تبكى .

قال كأنه يهوى .

ـ أتم انها كانت طفلة .. كانت عائشة لا تزال طفلة لم يتضح ثدياها بعد .. لم أكن أيامها أدرك أشياء كثيرة تعبر عنها وجه فتاة طفلة تذهب وحدها الى شقة رجل .. ولكنى كنت أشعر بأن شيئا ما مؤلما ومهينا يحدث لها .. أطفأ بريق الطفولة فى عينيها .. وسقطت أهدابها على عينيها فى كآبة .. أصبحت كوردة داستها أقدام خرير أنها تبكى الآن .. تحاول أن تكتم نشيجها الصغرى .

ـ الآن ؟ .. قلت انها ماتت .

ـ أحرقت نفسها .. ولكنها لم تمت داخل رأسى .

انقطع الحديث بينهم فجأة ولفهما الحزن برداء الصمت وسارا مطرقى الرأس يستمعان الى وشوشة موجات البحر مختلطة بوقع أقدامهما غير المنتظمة بينما كانت ساحات سحيقة من الورقة الداكنة تنفس أصوات غريبة .. ربما كانت أصوات الليل .

قال وهى تفرز كعب حذائها فى الرمال الرطبة ..

ـ هل للرجل أخت .. ؟

ـ اى رجل ؟ ..

ـ ذلك الذى يأتى لرئيسك فى المكتب .

ـ وربما زوجه .. وربما ليس أحد ولكنها لمسة دنيئة .. أليس كذلك ؟ ..

ـ ليست اللمسة الوحيدة على أى حال ومع ذلك ففى الحياة ملايين من الأشياء الطيبة .. يجب أن تهتم بهذه الأشياء . انها تخفف من مرارة الحياة .

ـ عندما تغوص المرارة عميقا فى قلبك فتدفع بالحقد الى فروعك سوف تحدثين من الصعب التحدث عن الأشياء الطيبة وطالما هناك أقواس فى العالم فستظل الحياة مريرة .. لابد من تدمير كل الأقواس فى العالم .. لن يفيد اللمسة الا الدم .. فكل ما لدينا من حقد سيجعل الحياة طيبة .

ـ بل بكل ما لدينا من حب .

ـ أنت تفكرين بعقلية امرأة .

ـ وأنت تفكر برأس الحقد .

ـ الحقد هو الوسيلة الوحيدة لتطييب الحياة .

ـ الحب يضىء الحياة فى ليلة ليس لها قمر .

ـ ترهات .. هل يمكن أن يقوم الحب على تل من الجثث .. تفنى الحياة أولا وسيكون الحب بعد ذلك أكثر اشراقا .

عاد الصمت يحتوى عليهما فجأة .. ولكنهما عادا فقالا جملتين فى نفس الوقت .. اختلطت كلماتها فحاول كلاهما أن يدع الآخر يتكلم فلاذا بالصمت ثم قال كل منهما للآخر .

ـ ماذا كنت تقول .

فقال كلاهما .

ـ لا شىء .. لا شىء .